قصة

عقد الحبل الثخين إلى الدرابزين الزيتوني، وربط شعبتيه إلى بعضهما ربطًا محكمًا. الوقت متأخر، وقمر الليل ملتحفٌ بسحابةٍ رماديةٍ شفافة. أمرر عدستيه في الأرجاء وما من أحدٍ حوله، فما فتئ يهمس:

-أجت الرزقة.

فلعق لعابه الذي شرّ من فمه كالمخاط، وقفز إلى العقدة التي أنشأها في الحبل، وعصر عليها بكلتا يديه، فانتصب الحبل بسبب الثقل وأصدر فحيحًا كصوت الأفعى. قبض بيدٍ على عضاضة من الدرابزين، وعصر بالأخرى على الحبل عصرًا قويًا فلا يفقد التوازن، ثم استرق في منتصف الطريق نظرةً مخاتلة من الشباك، فتردد إلى عينيه في وسط الليل ضوء باهت من الردهة، فدس رأسه إلى الأسفل في القميص كالسلحفاة وغمغم من بلعومه "الله يستر!!"

وظلّ معلقًا في الهواء، يترنّح كالناقوس تارةً إلى اليمين وتارةً إلى الشمال، وهو والحبل المشدود واحدٌ كأنما انصهرا، فلما لم يتغيّر شيء رفع بصره في المجهول وألقى نظرة أخرى في الرواق، وما وجد شيئًا قد تغير عن حاله أو اختلف فتمتم:

-إنذار خاطئ.

ارتكى بصدره إلى الدرابزين، فنزل منه بخفة وبرشاقة حتى صار في باحة الفرندة، فمكث ساجدًا، وأمعن الرؤيا في زجاج النافذة الفاصلة بين الفرندة والمطبخ، ثم أخرج موسًا كان قد ضغطه إلى سرواله، وأحدث شقًا صغيرًا في المنخل، ومن المنخل دس يده إلى العطفة الأخرى، وحلّ الشيفرة، فتوغّل في الظلام كما تتوغّل أمواج البحر برمال الشاطئ-دابًا على الأرض- في ردهة المنزل، إلى أن مر بحقيبة جلد سوداء، فاصطدم بها في ركبته، فبحثها بعناية كمن يبحث عن إبرة رفيعة في كومة تبن، وعلى حين فجأة بينما هو يبحث فيها إذ لمع في أرجائها ضوءٌ أبيض انبثق شعاعه في عينيه، وتعالى صوت رنين هاتف محمول، فرمى كل شيء في بساط الحقيبة. وتأبط الهاتف المحمول صاحب الزمور الصاخب، وهرب كالعداء، فرمى بنفسه من الفرندة، فطار في الهواء لثانية أو اثنتين حتى صار عقب ذلك طريحًا في التراب مدهوسًا كالذبابة على صفحة وجهه.

-آخ...

صرخ، فخرج الصوت من طرف فمه، فدفن وجهه كيلا يحدث ضجيجًا. لملم المسروقات المشتتة جراء السقوط في بساط التراب وتابع يحدث نفسه:

-هيا يا جميل...بسرعة!!!

وركض حافي كطفل خائف في باحة العمارة وصعد سورها الأرجواني، إلى أن وصل مفرق طرق، فلجأ إلى ركن مظلم أسفل سلم باطون قديم، وغمغم بصوتٍ مبحوح غلبت عليه أنفاسه المتهدجة:

-يا عفو الله...

واستصعب المسير، خاصةً بعدما انتابته نوبات سعال الحاد، وتسارع فؤاده المتهدج في الخفقان، وفي خضم التعب، وبين السعال والأنفاس والاضطراب، قلّب عينيه في الحقيبة السوداء والهاتف المحمول والحشوة، وابتسم بمكر كأنما حقق انتصارًا بعد خسارات، وندّه:

-قبرنا الفقر...!!!

فخضّ الحقيبة -بعدما قلبها على قفاها- بهمجية ولجوج، وسقطت الممتلكات كأنما زخات الأمطار تنهمر على أرضٍ عطشاء في يوم شتوي في منتصف كانون الأول، فسقط بعضها إلى الرصيف بينما رسا الآخر منها على بعد أمتار فوق الشارع، فما إن رمق الجوال بين المسروقات حتى انتشله من مكانه الذي سقط فيه كالصاروخ، وأحدث في شاشته تركيزه بعد أن تسقّط قليلًا منه وقال:

-اللّعنة على الأجهزة الالكترونية وعلى كلمات المرور الخاصة بها، علّها: 0000

" كلمة المرور مغلوطة، كرر المحاولة" فلعن وسب وشتم، ثم رمى المحمول في الهواء كما ترمى كرة المضرب فهوى في حجرةٍ ضيقة أسفل السور، وبحث في الممتلكات الشخصية المبعثرة في الأرجاء، إلى أن وقع نظره على قطعة مستطيلة صغيرة كأنما هوية شخصية، كُتب عليها: "علياء رشيد الدين، المواليد 1980.05.01 دمشق-حي ساروجة"، فحول محياه إلى صورتها في الأعلى فتفرس في صورتها، وتعلّقت محجريه فيها كاللاصق، وتولّته دهشة عامرة، وسيطر عليه شعور فظيع وقف له شعر بدنه، فوجهٌ حليبيٌ مستدير مشرق، وعينانٌ لوزيتان برّاقتان، وأنفٌ صغيرٌ مفلطح، وشعرٌ كستنائيٌ غجري. غابت عنه مصيبته ونسي المحمول وكلمة المرور والورطة التي حلت به، وقال "يا الله الخالق العظيم...احفظ على الأرض ما عليها"

وسرى حيزٌ من الوقت وهو يملئ عينيه من صورتها، فقال "أين أنا من كلّ هذا الآن"، وتفحّص الحشو الذي تناثر على الأرض كحبات الأرز. من قلم حمرة روبي مستعمل وفوط بيضاء مغلفة إلى سجل فواتير ومفكرة صغيرة..."مفكرة صغيرة" تفكر قليلًا، فقبضها بذراعيه كقبضة الأخطبوط، وقلّب صفحاتها كآلة تثمين النقود، إلا أنه ما عثر إلا على تواريخ لا فائدة فيها، فرمى المفكرة التي أحكم عليها كما رمى المحمول سابقًا، فهوت على بساط الأرض بعد أن حلقت في الهواء وانفتحت على مصراعيها، حتى صارت من ممتلكات الشارع، وهدأت مقلوبة على بعد أمتار، فلاحظ في صفحتها الأخيرة بالخط العريض الأحمر عنوان، وقرأه من مقامه البعيد بصعوبة بالغة " ... مرور!"

-ماذا مرور؟؟!!

تساءل، واقترب من المفكرة التي رماها لتوه، فتناولها بيده وقلبها بعدما جلس القرفصاء في منتصف الطريق، وتناول العنوان بتمعن هذه المرة "**<u>كلمات المرور</u>**"، فصفن فيه برهة من الزمن ما جاوزت دقيقة أو دقيقتين، وبينما هو يطالع المحتوى ويتفكر في العنوان، ضرب في فكره الجوال والمفكرة وكلمات المرور، فصرخ "وجدتها!"

وسحب المحمول من الحجرة التي سقط فيها بصعوبة، وكتب فيه "1 9 8 0" وقال "1980"، فكأنما عثر على كنزٍ من كنوزِ القراصنة، وبدأ عقب ذلك في تفحص الصور والمكالمات إلى أن وصل إلى الرسائل والمحادثات، فنقر على تسجيل صوتي من محادثات الواتس أب:

"جارتي...حبيبتي. بكرا الصّبح على العشرة بتشرفي على فنجان قهوة"

فهام بصوتها هيامًا مجنونًا، فأخذ يقول "اسم مميز وصورة أخاذة وصوت عذب، ضربٌ من مستحيل"، فشعر بروح الغرام تنفذ إليه وتشق طريقها إلى قلبه، فقد نقله صوتها إلى مجرة وردية نسى في مكنونها رمة الهموم ومكدرات العيش وأرزاء الحياة، حتى أضحى موضوع المسروقات في خلده موضوع ثانوي، واستدرجته المحادثات التي تتبعها إلى مزيدٍ من التسجيلات والصور والتعليقات، فأدمن صوتها إدمانًا عنيفًا، وتعلق بصورها أيما تعلق، فصار يرقص- كمن فقد عقله- على وقع صوتها الشجين وصورها الباهية تمامًا كالدراويش في وسط الصحراء وهو يترنم بصوته النشاز:

-سرقة باحتراف...سرقة باحتراف

حتى إذا ولج باب المنزل، بعثر المسروقات على بساط سماوي متربّع في وسط غرفة صغيرة، وجلس القرفصاء إلى جدار أبيض شاحب فرتّبها كالتالي:

إلى القمرة اليمنى أجلس مستحضرات التجميل، وإلى اليسرى أقعد دفتر الفواتير والمفكرة "السحرية"، أما الجهاز المحمول فقد حشره أسفل وسادة الفراش القطنية المهترئة، "ولا أثر للأموال" دوت الكلمات من بين أسنانه كالصفير، وذاك ما كلفه كثيرًا من الاهتمام حيث أن العملية تمت بنجاح، وصبّ جل تفكيره -الذي ما برح عنه لحظة-في المحمول، وما هو يستذكر أمره ويتفقد مكانه المخصوص له حتى هتف رنين مألوف قد دار إلى مسمعه مسبقًا، وبينما هو يستذكر الصوت ويستحضر نغمة الموسيقا دار إليه الجواب فزعق "الجوال!!!"، وانتشله من محله، وقرأ في شاشته البلورية بمشقةٍ وعناءٍ "أم أنور؟!!" ففكر في المصيبة التي أحاطته، "ماذا يفعل في ذلك الآن" خمن، إلا أنه لم يمهل لنفسه كثيرًا من الوقت في التفكير، ونقر على المفتاح الأخضر بعدما سحب نفسًا عميقًا ملأ به صدره وهتف:

-ألو

-...

-ألو...

-عليا، من المتكلّم؟

فلم ينبس بحرف، فاستكملت:

-حقيبتي! لعنك الله...

فجزم أنها علمت، وطرق إلى مسمعه وشوشة إلى الطرف الآخر من الخط، فخال إليه أن أحدًا ما يجالسها أو يستمع لحديثهما، وظن أسوء الظنون "البوليس"، فأغلق فيما لو أن سره قد انفضح عندهم، فهاتفته ولكنه لم يجيب، فهاتفته مجددًا فرفع الخط وقد كلله العرق وانتابه الخوف والقلق وقال في صوت أجش قاسي متسترًا جريمته:

-اي اعتبار غير مناسب أو اي خطوة جريئة منكِ سوف تمنّي لك بخسائر كلّ الممتلكات.

وهيمن صمتٌ مطبق على الخط، وشعر بسيالٍ جارفٍ من الماء يتهادى في جبهته كزخّات المطر، فمسحه بظاهر كفه، وراجع مدة المكالمة فلا جاوزت الدقيقة بعد، فقطع عليها وعاود الاتصال فبادرت هي زمام الأمور وقالت بصوتٍ طغت السكينة عليه:

-والله أنا أؤثر الممتلكات عن اي شيء، وكل الألاعيب ليست مضماري، خذ ما شئت، وعد لي الثبوتيات الشخصية، ولك ما تريد من المال.

-لا أقل عن مائة ألف.

-لك ما تريد...

-تصلك رسالة بالتوقيت والمكان، واي محاولة مخاتلة عاقبتها وخيمة...

-حسنًا.

وعبثًا حدق في الحائط لدقيقة، ومر في خاطره صوتها، واستعاده من ذاكرته القصيرة، "ما هو هذا الدافع العجيب!" تساءل. صار الصّباحُ جليٌّ في السماء الزرقاء، وفي أشعة الشمس وفي زقزقة العصافير. وبعد مرور سعة واسعة من الوقت كتب جميل رسالة لعلياء مفادها: "ساحة المرجة، السابعة مساءً" ومضى أول اليوم وقد لفّه الخوف والذعر، "هو التسرع أم الغرام؟!" ما علم. طرح ثيابه جميعها على الأريكة السوداء الفاهية، وقلب نظره في مجموعة القمصان والسترات المختلفة المقاسات، وفكر: "ما أنسبها يا تُرى؟!" وحك رأسه بأظافره المتآكلة حكًا شديدًا، وحوّل نظره إلى ساعة الحائط. السادسة إلا عشر دقائق. فهتف:

-الموعد!

وقفز إلى القمصان المكدّسة والمتراصة، فاختار أقلها تجعّدًا وأكثرها رتابة، وناسبه بسروال عتيق ما وجد غيره من السراويل. وأوصد النافذة، وطبش الباب وهمس في نفسه:

-اللّصوص كثر.

عبر جميل المرجة عبورًا خاطفًا وهو يتلصص في جنباتها المتعددة تارةً إلى اليمين وتارةً إلى الشمال، وقد اعتراه الخوف وتملكته الرهبة واستولى عليه الذعر، وقلبه يخفق خفقانًا مجنونًا، وأنفاسه تتخبط، فتعلو تارةً وتخفتً تارةً أخرى، فما هي دقائق مرت عليه مرور ساعات بين قلقٍ واضطراب واعتلاج، حتى ظهر شبحها فميزها من بين جميع الحشد الهائم في الساحة المدورة، فأخذ نفسًا عميقًا، وترقّبها بتمعّن نُسب إلى المهنة. وكأن الإحساس لديه تلوّن بخطٍ مستقيم رُسم على المسافة بينهما. ويا ليت اللّيل يصحو، والقمر يعلو سابحًا فوق السحاب. لمحت عليا من بعيد غُلامًا متسمرًا مسحورًا. ولوّحت بيدها إليه...تقدّم على مهل، كمن رُبط بخيطان إلى مفاصله...وعندما ارتطمت قدمه بالرصيف، مدّ لها يده قائلًا:

-جميل...

...

تمت بعون الله

اكتبوا لي رأيكم في القصة بالتعليقات أو اكتبوا لي شخصيًا :) سوف أكون مسرورًا جدًا

أجب على أية سؤال من الأسئلة أو على جميعها في التعليقات

ما هي العبرة التي استخلصتها من القصة؟

كيف يمكن تطبيقها في المستقبل؟

هل لامستك شخصية من شخصيات القصة؟

الأهم من كل ما سبق. هل أعجبتك القصة واستمتعت بها؟

حسابي على الانستغرام 🟣

حسابي على الفيسبوك 🔵